قصة بقلم
د. محمد براده

معلقة في الهواء بدون أعمـــدة ولا ركائز . القبب شامخة متلاحمة . رؤوسها المسنونة تستطيـل لتخترق جليد السحب الرصاصية . بيضاء . ناصعـة البياض . بدون نوافذ ولا مصاريع . كتلة متراصـة تلفّ في بطء فتصيبه بالدوران ، وهو ينظر اليهـا من القاع . واقف على غير قدمين وسط هوّة رمادية يفرض السحاب محيطا لها تفرضـه العين ولا تميزه ، فينقلب اللـون قهويا ـ حليبيا . عريان يرتجف . عينـاه معلقتان صوب القبب السابحة . شعر صدره وساقيه وحوضه يقشعر . أداته الجنسية متقلصـة تكاد لا تبيـن . يحملق . ينظر . تتراخى الاجفان . يغمض العينين . يشعر الآن انه معلق من أشفاره بخيط جد رقيق يشدّه الـى قاعدة القبب ، ومن تحته تلسعه شفرات الحلاقة متصاعدة نحو الحوض. يضع يديه تحت السرّة ثم يصرخ فيما تتحرك كتلة القبب البيضاء بسرعة أكبر نحو شمال أو جنوب لا يعيه .

الطائرة تقترب من مطـار طوكيو . لا . من مطـار هونغ ـ كونغ . لا يتذكر جيدا . الطائرة تقترب ، ولحظة ملامسة الارض جد وشيكة . راح يكدّ دماغه بحثـا عن صورة يشبّه بها هذه اللحظة . استقر رأيه أخيرا عـلى صورة الطائر الفارد جناحيه، المنحدر نحو المياه النائمة.. يطول الانحـدار ويتقارب الجسـدان دون أن يحدث التلامس . لحظة معلقـة في الابدية . أيقظته الهزة التي أحدثتها العجلتان وهما تحطان على الارض ، من سرحانه. استدار مبتسما نحو جارته الباريسية التي جاءت تبحث في هونغ ـ كونغ عن عجائب تكسر الرتابة وتشعل الخبال المتعب من وطأة الممارسة والزمن .

اذا فهم جيدا .. اذا فهمت جيدا ، سيمكنهما أن يتعاشرا فوق هذه الارض الغريبـة . ولِمَ لا ؟ أجـابت ضاحكـة .

في المساء فقط وهما يجوسان عبر شوارع المدينة المتلألئة المكتظة ، تنبه الى انه لم يحترم الوعد الذي قطعه على نفسه بأن يتحرر من كل القيـود لينطلق وحيـدا يكتشف مدينة طالما داعبت خيـاله ، وينسج من واقع يعيشه شريطا اختزنته ذاكرته في لحظات أحلام اليقظـة والملالة المقتحمـة . كان يمنـي النفس بالتسكع أمـام الواجهات وعبر الازقة الضيقـة والواسعة ، وبجولات داخل المواخير والحانات ، وبمحادثة العقلاء والحمقى ، ومجالسة الافاقين والدجالين ، وكل من يحمـل شارة أو لا يحملها .. كل من يصادفـه في طريقه .. انطلاقا وراء أسرار لا تزيدها المـلامح المستديرة المتشابكـة الا غموضا وانغلاقا . أول مرة عشق فيها هذا الجزء مـن العالم ، حينما كان يشاهد شريطا تجري بعض حوادثه في هونغ ـ كونغ : البطـل المنهك ، المنسوف مـن الداخل يتجول عبر الازقة الآهلة بالمومسات . الوجوه المستديرة تلاحقه في ابتسامات يتنافى أدبها مع الغرض ، وهو في

حيرته وتبدده لا يعرف ما يفعل . يتوقف عند واحدة ، يمزّق قميصها وحاملة النهدين ويشرع في دعكها ناظرا الى وجهها المبتسم دائما .. تستنفد الحركة جاذبيتها فيتوقف ويمد لها ورقة مالية .

لاوعيه تعمره صور هذه المناطق .. حتى الذين يحلمون بالصين الحمراء ، والفيتنام الملتهبة لا يستبعدون وقفات عند هونغ ـ كونغ وطوكيو اذا أمكن . شيء طبيعي اذا اردنا التبرير ، وحتى بدون تبرير . لو صدق حدسي : الانسان في هذه المناطق شكل ثان . يبهرك بحركاته ، بردود فعله ، بفلسفته وطرائق مواجهته للتحديات ... « لانه يتصرف على شاكلة الطبيعة ، يصعب عليه أن يكون متصنعا » قال كونفوشيوس .. كم من الاجيال مرّت قبل ان يثبت ماوو عكس ذلك : لاننا نتصرف كبشر ، فاننا نذيب التصنع ونعيد للانسان حريته وتلقائيته .

ـ لماذا هونغ ـ كونغ وليس بكين ؟

ـ لعلها محطة لازمة .. وقد تكون كل الطرق مؤدية الى بكين ..

عادت الى الضحك كأنما لتدفع حرجا متخيلا من سؤالها :

ـ سؤالي لا معنى له .. انت تعرف ان معظم شبابنا في باريس تحجّ قلوبهم الف مرة الى بقاع الصين . انا لست ماوتسية ولا يضايقني وجود الصين ما دامت حريتي مضمونة .. تفهمني ؟ انا قضيت طفولة تعيسة ، لم أتمم دراستي . منذ الثامنة عشرة اصبحت محظية لاحد الاثرياء . نفحني مالا اشتريت به منزلا وافترقنا بعد ان بلغت الثلاثين . اعمل سكرتيرة واتوجس خيفة من المستقبل . أريد أن أتمتع لكن الحياة لم تعد سهلة كما كانت . شباب اليوم يخيفونني بعشقهم للعنف ..

طعم الحانات يصبح الذّ في مثل هذه اللقاءات . الآخر يقتحم خلوتك . يضعك أمام أسئلة جديدة . تتنازعك الرغائب والغرائز . تقول كل شيء يمكنه أن ينتظر . لنكتشف المزيد من المعاش وليكن الهضم آخر المطاف .

الثالثة صباحا وهما عائدان يدقان بحذائيهما افريز الازقة الغافية ، أحس ان وحدتهما الطافية بعد جولة في مدينة مسحورة لن يخفف من وطأتها سوى التحام الجسدين . فتح نافذة غرفته دون أن يضغط على زر النور . القمر المتلألىء في طريقه الى المغيب ينير السرير لكنه ، وهو ينظر اليها تنزع آخر قطعة تلامس جسدها ، بهت أمام بياض جسدها : جدّ أبيض ، ناصع البياض . تقول جدار حديث الطلي ، تقول سمكة منزوعة القشر والجلد . سرت قشعريرة في جسده . تكهرب . طارت الخمرة ، وغمره صحو دافق . ينظر اليها في بلاهة واندهاش . عيناه تحدقان تكادان تخرجان من محجريهما . منذ لحظة فقط كان يقول لها : أيتها الباريسية الجميلة ستهبينني الليلة دفئا جديدا . الآن هو متسمر في مكانه ، وهي متضايقة من نظراته البلهاء التي تطوف بجسدها من الرأس الى القدمين

ـ مالك ؟ خجول ؟ لم تضاجع امرأة من قبل ؟

ـ بلى . الف امرأة . منذ الرابعة عشرة من عمري .

ـ اذن ، ماذا ؟

ـ لست أدري .

تقترب منه . تداعب صدغيه وعنقه . تمصّ حلمة صدره . لكنه لا يكاد يشعر . بعد جهد حرك يده ليمسد شعرها ويمررها على جسدها . لسعه البياض .

ـ لعلك متعب ؟

ـ أبدا . انا اشتهيك حتى من قبل ان أولد .

حركاته لا تترجم فعلا ما يقول . شيء ما يحبس العفريت داخل القمقم ولو ان الجنس استيقظ في نهاية الامر ، ولو ان الجسد تمدد فوق الجسد .. فان شيئا ما يكبّل حركاته ويعوقه عن الوصول الى الايقاع المنطلق .

لحظة الشهوة جللتها غلالة بيضاء . قال في نفسه : لقد ضاجعت الموت !

بعد سبعة أشهر ، كانت الطائرة تحمله الى باريس . راح يستعيد لقاءه مع ذات الجسد الابيض ، وراح ذهنه يبحث عن صورة لتلامس العجلتين مع الارض فلم يجد غير صورة الطائر الفارد جناحيه ، المنحدر نحو المياه النائمة .. وقال ان الامر ، رغم كل شيء ، أحسن من ذي قبل . اكتمل الحلم الذي داعبه منذ قديم : أن تكون له عشيقة في باريس يزورها كلما مرّ بهذه المدينة الجميلة . قال لها في الهاتف ضاحكا :

ـ يظهر ان الحجّ الى باريس اكثر جاذبية من الحج الى بكين .

ـ هذا يسعدني .. متى أراك ؟

رقصا حتى مطلع الفجر . تحدثا في كل شيء . العالم فعلا يدور . نحن لا نتغير بالقدر الكافي . نحن ، على العكس ، نتغير بأسرع مما تظنين ، اقصد الاعماق لا السطح . التغير عملية لا تتجزأ . فقط يصعب علينا أن ندرك . نستطيب الصورة التي كوّنها الآخرون عنا .. نتصامم عن اللحظات الجديدة . الكسل ؟ الجبن ، نقص في الارادة ؟

لا أحب ان تتفلسفي بهذه الطريقة . انت تكرهين العنف وهذا يمنعك من أن تري كيف يمكن أن تتخلخل الملصقات على جباهنا وافواهنا وأجسادنا .

في هذه المرة ايضا صعق لبياض جسدها . خفت

الحماس والاندفاع وتقلصت الشهوة . لم يكن صعبا أن تلاحظ حالته .

ـ أنتِ بيضاء أكثر من اللازم .
ـ آه .. نسيت انك افريقي ، لا يعجبك بياضي ؟
ـ بياضك يذهلني . يثلجني . أجده غير عادي .

ضحكتها لا تذيب تراجيدية اللحظة .

ـ أطلي جسدي بالسواد ؟
ـ آه لو تستطيعين .
ـ أنت مريض لا شك .. تعال لتنام .

* * *

مريض أنا . جئت اليك يا من تحلل النفوس وتسبر أغوارها ، تكشف الخبايا والكوامن ، والعقد والطلاسم . تعيد للكيان توازنه . تحرره من حباله المستورة . تطلق نوازعه المكبوتة . كل القرابين أحملها لو تعلم . من أين الطريق الى معبدك يا ملكا لم يتوّجه صولجان ؟

ـ من هنا .. تمدد فوق الاريكة . تحلل من ربطة عنقك . ضع رجليك أينما شئت . دخّن اذا أردت . تنفس بعمق ثم حدثني عن كل ما يمر بخاطرك . اقتنص أية لحظة تشاء وانطلق . لا تنسق أقوالك . لا تفرض رقابة على ما تتفوه به . أنت الآن في رحاب الكينونة الكثيفة ، في رحاب الشعر الممزق لكل الحجب . اصهل أيها الجواد الذي صدىء صوته .

أقول لك عن حلمي.. أروي لك أحلامي . شاهدتها منذ ولدت هي نفسها تتكرر . ينحبس الزمن في قارورتها . تتمخض كل يوم ، من يفكّ اسارها ؟

حلمت بالنعمان يختال عجبا في قصر الخورنق وبالجواري يسطن الاسياد الذين يفسدون في الارض والسماء وبالليلة الخمسمائة من حكايا شهرزاد ، حلمت ببشّار يصبّ الخيل في الزيت وبالمعري يضحك مجلجلا من الشقاوة والنعمى وبالصعاليك يذبحون أجساد التجار فلا يسيل منها دم بل قار وبالقرامطة يتنادون لاكل الزيتون فوق جبل الطور ، حلمت بكاهنة البربرية تضاجع ادريس الاول وبعقبة بن نافع يقبّل فرسه في اشتياق وبأحمد موسى يقفز من القبر الى قمة الجبل ، حلمت بالوليد ابن يزيد يصلي سكرانا وبهارون الرشيد يغازل المتجردة ، حلمت بالضبع يأكل السبع فلا تسعه بطنه وبالجيش العرمرم تدفنه رياح سافية ، حلمت بالمسيح يبعث مارلين مونرو من قبرها فتهتف له كل الحناجر ، حلمت بأرتال المشردين يصوبون البنادق وبالنار تلتهم الاخضر واليابس وبالساذجين يطلبون سقيا المدينة والعباد، حلمت بالازواج كل الازواج ينتحرون وبالموتى يستيقظون ، حلمت بالربيع قبل الشتاء وبالنهد قبل الثغر وبالجحيم يسكنه الولدان المخلدون وبالاعاصير يشربها الفنجان ، حلمت بالشيطان بأجسام كل المومسات وغير المومسات اللائي ضاجعتهن ، حلمت بالنهود التي كنت المسها وأنا طفل صحبة أمي في الحمّام ، حلمت بالساحرة تصعق نظراتها الطيور والاناسي والاسماك ، حلمت بما لم يحلم به أحد : تسلّخت جلدي تبخر جسدي . عدت نطفة في رحم بكر . آه لو يصدق الحلم !

ـ حاول أن تغادر الاحلام الى المعاش . فتش في زوايا ذاكرتك وأنت طفل عن أول ما تتذكره . هل تستطيع أن تستعيد لحظة التماسّ بينك وبين العالم ؟ على مهلك . تنفس بعمق . كل الوقت أمامنا .
ـ كل الوقت خلفنا .

ـ أنت ترتعش . حبات العرق ترشح على جبينك . عيناك تغيمان . لا تقلق . اقتنص ما يتراءى لك . فكّ حبسة لسانك . اصهل أيها الجواد الذي صدىء صوته .

ـ عمري ألف عام .. يخيل اليّ ان عمري ألف عام . لكن ما أراه الآن يذهلني . في البدء ، بدئي ، كان النهد . نهد أبيض . جسد عار أبيض . الشعر هالة سوداء تضاعف من بياض الجسد . هذا الجسد أعرفه . لم أضاجعه . يتمدد بلا حراك . عيناها مطبقتان . كنت في الرابعة . كنت في الخامسة .. كل من في البيت الكبير يبكي رجالا ونساء . بكيت بدوري . الخادمة تحملني وتقترب من الغرفة المقفلة . أرادت أن تتملص مني . فتحت باب الغرفة ووضعتني على العتبة . انقطع صراخي . خطوت نحو خشبة « المفسل » الذي تتمدد فوقه عمتي . كانت بلا حراك . كنت أعبدها . في ذهول اقتربت ثم وضعت يدي على نهدها . كان باردا وجدّ أبيض . امتدت يد من ورائي فاختطفتني .

نصاعة صورة الجسد الابيض الميت ، الآن ، أوضح عندي من كل الذكريات . يمتلىء ذهني بكل التفاصيل ، حتى نسيج العنكبوت فوق الرتاج .. لن أنساها قط الى آخر لحظة ، أتنفس فيها فوق الارض أو بين طيات الغمام .

أحبو داخل القبو
فوق أجسام هلامية رخوة
الطحلب يعوق خطواتي
أتلفت الى الوراء فلا أرى نورا يشعّ
الظلمة والزمهرير في ثنايا العينين والمخ

يا أحلاما لم أحلمها بعد : هل تدفنين بياضك تحت ركام الذكريات ؟

الرباط